ومع هذا فالدكتور زكى مبارك يعود مرة أخرى فى معرض الحديث عن النثر الفنى فى القرن الرابع فيتحدث عن عهد النبوة بشكل يوحى بأنه عصر مستقل ، يقول :

« فقد رأى القارىء كيف تطورت الفنون النثرية من عهد النبوة إلى العهد الذى ندرسه فى هذا الكتاب ورأى كذلك أننا موقنون بأن النثر لعهد النبوة نفسه لم يخلق خلقاً ، وإنما نشأ وتطور فى عدة أجيال ، وكل ما يمكن الاطمئنان إليه فى تقدير الخصائص النثرية لهذا العهد هو بروز العناصر الفنية التى ظهرت تباشيرها منذ القرن الأول ، فليس فى القرن الرابع خصائص جديدة كل الجدة ، ولكن فيه خصائص كانت تلمح عند كتاب القرن الأول والثانى والثالث . ثم ظهرت واضحة قوية على أقلام الفحول المبدعين أمثال ابن العميد والخوارزمى وبديع الزمان » (١) .

والذى يهمنا من هذا النص على نحو ما أشرنا ثلاثة أشياء : أولها ذلك الحديث عن عهد النبوة على هذا النحو من التخصيص ، فاذا كان عهد النبوة عصراً جاهلياً لايفترق العصران فى شىء ، فلماذا يفرد هكذا بالذكر ؟ والحديث على أى حال فى معرض التاريخ الأدبى الذى يعد شيئاً مختلفاً فى مقوماته عن التاريخ السياسى ، وأما الشىء الثانى ، فهو مايشير إليه الكاتب من اعتبار النثر لعهد النبوة لم يخلق خلقاً ، وإنما نشأ وتطور فى عدة أجيال.. فهذا التطور عبر الأجيال من جيل إلى جيل ، ومن الجاهلية فوق الجسور إلى عهد النبوة لايعنى أن الأجيال كلها أو العصور جميعاً تنصهر مجتمعة فى عصر واحد . وهذا على أى حال ما لم يعرض له الدكتور زكى مبارك ، وإنما عرض له مؤرخو الأدب على نحو ما سنرى فى الفصل المقبل . وأما الشىء

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٧ .